

وسائل تثبيت الاستعمار الانكليزي : آلية التنصير في منطقتي الهند والخليج العربي

The Means of Colonization of English: the Mechanism of Christianization in the Regions of India and the Arabian Gulf

بن شرقي عبد القادر^{*1}

¹ جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)، abencherki@univ-chlef.dz

تاريخ النشر: 2025/06/30	تاريخ القبول: 2024/01/22	تاريخ الاستلام: 2022/06/23
-------------------------	--------------------------	----------------------------

ملخص: شكّل التنصير إحدى الآليات ووسائل تثبيت الاستعمار التي اعتمدتها بريطانيا في كل من الهند ومنطقة الخليج العربي، لحماية وتثبيت موقعها السياسي بعدما تأكد لها الوجود الإمبراطوري في الهند بواسطة شركة الهند الشرقية البريطانية، التي توسّعت صلاحياتها من التجارة إلى التمثيل السياسي، وشكّل الوضع الداخلي لكل من الهند وكذا منطقة الخليج العربي عاملا مساعدا تميّز بغياب سلطة مركزية و بالتالي غياب جيش للدفاع عن ثروات المنطقة.

كلمات مفتاحية: أشكال التنصير، شركة الهند الشرقية البريطانية، الهند، منطقة الخليج.

Abstract: The form of Christianization is one of the mechanisms and means in the British colonial policy adopted by Britain in India and the Gulf region to protect and consolidate its political position after being confirmed by the imperial presence in India by the British East India Company which expanded its powers from trade to political representation and form the internal situation From India and the Gulf region as an auxiliary factor characterized by the absence of a central authority and therefore the absence of an army to defend the wealth of the region

Key words: Form of Christianization, British East India Company, India, Gulf region

1. مقدمة:

لطالما كانت قارة آسيا تشكّل إحدى أهم دوائر سياسة الاستعمار البريطاني إتجاه الهند والخليج العربي، هذا ما يبرّر مختلف الاستراتيجيات التي قامت بها بريطانيا في آسيا، فبريطانيا تُعتبر إحدى الدول الأوروبية التي استطاعت أن تزيج بقية المُتنافسين على المنطقة. وقصد المحافظة على علاقات وطيدة بمستعمراتها الآسيوية، اجتهدت وتمكّنت من بلوغ مرتبة مُتميّزة نتيجة لسياسة محكمة ودقيقة طبقتها في كل من الهند والخليج العربي في شتى المجالات الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية، غير أنّ المُتتبع للسياسة البريطانية يلاحظ أنّ ثمة تطوّرات جدت منذ أن أصبح لشركة الهند الشرقية البريطانية مهام سياسية

بدل مُهمّتها التّجاريّة وكانت لهذه السّياسة آليات مُتنوعة تهدف إلى الإبقاء على دورها المؤثر في السّياسة العالميّة، فاتّخذت التّنصير كوسيلة من بين الوسائل لإحكام سيطرتها على جميع الهند واحتواء منطقة الخليج العربي.

2. المشكلة البحثيّة:

تتمثّل المشكلة البحثيّة في دراسة مقارنة بين حاليّ الهند والخليج العربي من حيث تطبيق آلية التّنصير من طرف الإستعمار البريطاني في كلّ منهما أي في الهند وفي منطقة الخليج العربي.

من هذا المنطلق، يتمثّل السؤال البحثي الرئيسي في: ما هي أوجه التّشابه والاختلاف بين حاليّ الهند والخليج العربي من حيث الأهداف والآليات والنتائج التي إستخدمتها السّياسة الإستعماريّة البريطانيّة في كلّ منهما؟

3. الإطار النظري :

مفهوم التّنصير:

ذكر ابن منظور في "لسان العرب": (والتّنصُر: الدّخول في النّصرانيّة)، ومنه الحديث الذي في "الصّحّاحين" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه). ونستطيع أن نقول: إنّ التّنصير هو إدخال بعض النّاس في النّصرانيّة، فإن لم يدخل أحد فيها فهم يحرسون على أن يخرجوه من دينه ولاسيما المسلم.

ونحن بهذا التعريف نستفيد أموراً أحدها: أنّ غاية التّنصير ليست إخراج المسلمين فقط من دينهم، بل تشمل غيرهم من ذوي الملل، والثاني : أنّ غاية التّنصير في الأساس هي دخول النّاس في النّصرانيّة، فإن لم يقدرُوا على ذلك قاموا بإخراجهم من الدّين ولو إلى غير دين.

يقول القسّ صاموئيل زويمر (Samuel Zwemer) وهو أحد واضعي أسس التّنصير العالمي الحديث: " لكن مهمّة التبشير التي ندبتكم إليها الدّول المسيحيّة في البلاد الإسلاميّة

ليست إدخال المسلمين في المسيحية، فإنّ في هذا هداية لهم وتكريما لهم، وإنّما مهمتكم في أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتّالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها". (في مؤتمر القدس التنصيري عام 1935).

أولاً : حالة الهند:

- آلية التنصير في الهند :

الهند بلاد الشّعوب المختلفة في الدّين والعرق واللغة، وإنّ بعضها أجنيّ عن البعض الآخر، فهذه الشّعوب المختلفة استوطنت هذا المكان قبل وصول الفتوحات الإسلامية إليه. ففي الوقت الذي امتدّت فيه سلطة المسلمين السّياسية على جميع الهند بكلّ قوتها، كانت آثار الإسلام ضعيفة فاترة فيها حتّى في ذلك الحين، ولم تكن البيئة في هذه البلاد إسلامية خالصة... لغفلة حُكّام المسلمين، وإنّ به سبب استيلاء الدّيانة والحضارة الهندوكية على جميع القطر الهندي وبسبب كون التعليم والتّربية الإسلامية غير منتشرة بين جميع المسلمين أنفسهم، لذا لم يتسنّ لمعظم مسلمي الهند أن يكون لهم عقيدة إسلامية كاملة الأركان راسخة مهبذة الثقافة، فما عساهم أن يكونوا لو أنهم عاشوا وسطاً إسلامياً خالصاً (المودودي، د.ت.ن:28)

فمنذ النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر ميلادي، عرفت الهند حروباً عائليّة نشبت عند تولّي كلّ سلطان مغولي. وقد أفقرت هذه الحروب الدّولة بشريا واقتصاديا، كما أضعفتها سياسيا وعسكريا وأمنيّا، وفتحت المجال لاستضعاف السّلطة المركزيّة وانفصال الأقاليم واحدة بعد الأخرى كما فتحت المجال أيضا أمام الحاقدين على الحكم الإسلامي وللانتهازيين. فضاعت الهند من أيدي المسلمين نتيجة تفكّك الجبهة الدّاخلية الهندية واضمحلالها سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا وفكريا.

فذهب إهتمام الحكّام أكثر إلى جمع الضرائب والجباية أكثر من إهتمامهم لأمر الدّعوة، فكانت النتيجة أن زلزلت عروشهم بعد أن خويت خزائهم. هكذا كانت الطّروف مواتية لشركة الهند الشّرقية الإنجليزيّة لتملأ الفراغ الذي تركه تفكّك الدّولة المغولية، بعد أن

تمكنت الشركة من إبعاد منافساتها الأوروبية، لتستولي على الهند بقليل من الجيش المدرب المُنظم والمُسلّح تسليحاً متفوقاً، يقوده رجال برروا كلّ وسيلة لنيل غايتهم وهي السيطرة الكاملة على الهند وإحكامها بالوسائل المختلفة.

وهكذا نرى أنّه في الوقت الذي بدأت الشركة الإنجليزية تتحوّل من التجارة إلى السياسة والتوسّع وبسط السيادة، لم تكن الدولة المغوليّة المتهالكة تملك مالا ولا جيشاً، وأن الشركة الإنجليزية عندما قامت بالعمليات العسكريّة، فإنّها لم تواجه الدولة المغوليّة، بل واجهت الولاية الدولة، أي الولايات التي وجدت نفسها مضطرة أن تقوم لشؤونها بنفسها بعد أن أصبحت سلطة سلاطين الدولة المغوليّة لا تتعدّى حدود عاصمتهم بل وحتى هذه السلطة قد زالت من أيديهم أيضاً، وأصبحوا يعيشون داخل القصر في عزلة تامّة، ولا حول لهم ولا قوّة.

وكان لانخفاض إيرادات الدولة ثمّ لانقطاعها الأثر المدمر القاتل لكل أمل في إحياء الدولة في مجتمع يضع فيه المحاربون أنفسهم لخدمة من يدفع أكثر.

في عهد سيطرة شركة الهند الشرقيّة الإنجليزيّة، زاد النّشاط التنصيري مستخدماً في ذلك المجالات المختلفة من تعليم وصحافة وصحة وغير ذلك، ولقد نشر المنصّرون في أرجاء الهند في عهد الحاكم العام ولزلي (1798_ 1805م) (الحسني، 1977: 86) وأخذ الإنجليز يتدخلون في عادات الهنود وعقائدهم وأمور دينهم بعد أن كانوا في سابق أيامهم يتعاملون في هذا الجانب بحذر حتى يجتنبوا الكره الذي تولد لدى الهنود ضد البرتغاليين الذين كانوا يتّبعون أساليب البطش والسّخرية ضدّ الذين يخالفونهم في المعتقدات، إلّا أنّ الإنجليز بدأوا يسلكون مسلك البرتغاليين بعد أن رأوا أنّ الإمارات الهنديّة الوطنيّة تسقط أمامهم واحدة بعد الأخرى وأنّ الشركة أصبحت أقوى سلطة، فساقوا مع جيوشهم المسلحة جيوشاً من القساوسة والمُنصرين، إلّا أنّهم واجهوا نفوراً ومقاومة حتى في أوساط الجنود الذين أصبحوا تحت إمّرتهم، إذ ثار الجنود الهنود في عام 1806م في ويلور Vellore من أعمال مدارس ردّاً للأعمال التنصيريّة وزحفوا إلى القلعة التي كانت معتقلاً لأبناء المجاهد الشهيد

السلطان تيبو، وقتلوا الحراس الإنجليز واستولوا على القلعة، إلا أنّ الإنجليز قضوا على هذا التمرد وعاقبوا المشاركين فيه ونقلوا أبناء السلطان تيبو Tipu إلى مدينة كلكتا Calcutta تخوفاً من أن يكون لبقائهم في تلك المنطقة تأثير في إثارة الهنود ضد الإنجليز (حقي، 1974: 273)، ولكن رغم وقوع هذه الأحداث، استمرّ المنصرون في مخططاتهم التنصيرية متمتعين بحماية الشركة ومحاولين إكراه الناس على الدخول في النصرانية، ممّا تسبّب في تكرار حوادث ويلور في أماكن أخرى، منها ما وقع في ترافنكور Travancore في عهد الحاكم العام منتو Mento (1807_1813) حيث دبّر الهنود قتل المقيم الإنجليزي، إلا أنّه هرب من أيديهم فقتلوا ثلاثين إنجليزياً، وأدت هذه الأحداث إلى أن يناقش البرلمان الإنجليزي موضوع التنصير في الهند، فتقرّر تنظيم حركة التنصير بطريقة تخدم المصالح الإنجليزية ولا تثير مخاوف الهنود تجاه معتقداتهم الدينية، وتقرّر أيضاً أن لا يذهب إلى الهند من القساوسة إلاّ من حصل على تصريح بذلك، وأن تم تعيين قسّيس أكبر يكون المرجع الأعلى لحركة التنصير وتقوم الخزينة الهندية بتغطية نفقاته (النمر، 1969: 400)، ومع ذلك لم يكن القساوسة يخفون عداؤهم وإهاناتهم لمعتقدات أهل الهند، وكانوا يقومون بالتوزيع المجاني للكتب والرسائل المحشوة بالطعن على أديان أهل الهند وزعمائهم الدينيين، كما كانوا يذهبون إلى اجتماعات المسلمين والهندوس في حماية السلطات الإنجليزية المستعمرة، ويعملون لتحقير عقائدهم دون مبالاة، قاصدين بذلك حملهم على التدين بمذهب الإنجليز.

لقد استخدم التنصير الطباعة والصحافة والتعليم لتنفيذ مقاصده، وقام القسس بإنشاء أوّل مطبعة أهلية في مدينة سرامپور Serampore، كما قاموا بإصدار أوّل صحيفة إنجليزية وأوّل مجلة شهرية وأخرى أسبوعية باللغة البنغالية، وذلك في عام 1818م

في خطوة تطويرية لفاعلية النشاط التنصيري وجلب إهتمام الهنود قام المنصرون بتشجيع العامية وإحياء اللغات المحلية في الأقاليم الهندية المليئة بتعدد اللغات واللهجات، لتحلّ محلّ الفارسية والسندسكريتية اللتين كتبت بهما تراث الهند الثقافي والحضاري، وبالتالي لقطع العلاقة بين ذلك التراث والأجيال المقبلة، وتكون ما نشرته المطابع التنصيرية

مرجعاً لبدایات دخول تلك اللّغات المحليّة مرحلة الكتابة والطّباعة، وحتىّ أنّهم إهتموا في ذلك إلى أقلّ اللّغات واللّهجات شأنًا والتي يتحدّث بها القبائل البدائية في الغابات والمناطق الجبلية البعيدة عن المدينة والحضر، ولقد وضعوا لهذه اللّغات القواعد والقواميس، وكتبوا بها الكتب والرّسائل التنصيريّة، وحاولوا أن يترجموا الإنجيل إلى كلّ هذه اللّغات ما أمكن ذلك (عنيم وزميله، 1971: 142).

كان من نتائج ذلك أن ظهر هناك مثقفون هنود يقدرّون هذه الأعمال ويرجعون الفضل إلى هؤلاء المنصرين في إحياء لاتهم وتراثه الشّعبي، ويبتعدون بنفس الحماس عن اللغة الفارسية، لغة الدّول الإسلاميّة وثقافتها وحضارتها في شبه القارة الهندية.

استفاد المنصرون من التّسهيلات التي وفّرتها المواصلات الحديديّة والاتّصالات البرقية، في الانتقال من منطقة إلى أخرى والاتصال بمختلف فئات النّاس في المدن والأرياف، وذهب بهم الحلم إلى أن يفكروا في توحيد الهند دينيا تحت الرّاية النّصرانية، وأصدروا بيانًا في كلكتا في عهد الحاكم العام دلهوزي Dalhousie (1848_1856م) ذكروا فيه أنّه مادام أصبحت مختلف مناطق الهند مرتبطة ببعضها ببعض بفضل السكك الحديديّة والاتّصالات البرقية، فقد حان الوقت ليرتبط فيه أهل الهند بدين واحد، وذلك بترك أديانهم ومعتقداتهم والدّخول في النّصرانية دين السّادة الإنجليز، وامتدّ نشاطهم التنصيري إلى المؤسّسات التّعليمية والمستشفيات والسّجون والأسواق، ولم يتركوا فرصة إلّا واستغلّوها للسّخرية من عادات الهندوس والمسلمين، وإظهارها في مظهر غير حضاري، وجعلوا المدارس التي فتحوها شبكة لاصطياد الجيل الناشئ من الهنود وتنصيرهم، وكانوا يمتحنون الطلاب في الكتب الدينية النّصرانية ويعطون الجوائز لمن يجيب حسب عقائدهم، كما فتحو مدارس للبنات موجّهين إياهم برفع الحجاب، وكان الأولوية للحصول على الوظائف الصغيرة التي تركت للهنود، لمن يحمل شهادة من هؤلاء القس المنصرين. (حقي، 1977: 274).

لاشكّ أنّه لم يكتب أي نجاح لمثل هذه المخطّطات الطموحة في تنصير أهل الهند ولا في تنصير نسبة ضئيلة من الهنود، لأنّ اجتثاث العقائد التي ترسخت في نفوس النّاس خلال

القرون والأجيال، لا يمكن أن يتم بهذه السهولة التي كان يحلم بها المنصرون، خاصة وأنّ التّنصير كان في خدمة الاستعمار الإنجليزي الذي سلب من الهنود إستقلالهم ونهب مواردهم وأفقر أغنى أقاليمهم، وجزاً البلد الواحد إلى مئات من الإمارات والدويلات المحمية المتواطئة مع الإنجليز، والمتنافرة بين بعضها البعض، طبيعي أن يكون المسلمون أشدّ رفضاً لهذه المخططات وأقلّ تأثراً بها، وذلك بسبب المناعة العقائدية التي زودهم بها الدين الإسلامي، وبسبب أنّ الإنجليز سلبوا منهم السيادة وجعلوهم محكومين مضطهدين بعد أن كانوا أصحاب السيادة خلال قرون، وطبيعيّ أيضاً أن يكون الإنجليز بنفس السببين، يضعون في اعتبارهم أن يبقوا المسلمين في حالة أكثر ضعفاً وتخلّفاً وتفرّقا، ليأمنوا أية يقظة أو تحدّ من جانبهم لاستعادة مجدهم الضائع، والإبقاء على الإستعمار الإنجليزي وأحقاده الصليبية.

مع كلّ ما ذكرناه من فشل في تنصير الهنود، إلّا أنّنا لا ننكر أنّ التّنصير كان من الأسباب التي خلقت طبقة من المثقفين الهنود تتفهم الطّبيعة الإنجليزية وتتفاهم معها، وتتأثر بالأفكار الأوربية في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وحتى في مجال الإصلاح الديني في أوساط الهندوكيين من الطّبعة المتوسطة، حيث ظهر هناك من هؤلاء من حاول إصلاح الهندوكية متأثراً بالأفكار الغربية، وفي مقدمة هؤلاء يأتي راجا رام موهن روي Raja Ram Mohan Roy الذي قام بهذه المحاولة في البنغال، وسوامي دايا ننداساراسواتي Swami Dayananda Sarasvati الذي قام بنفس الدور في بنجاب (Smith, 1898: 651)، وذلك في النّصف الأول من القرن التّاسع عشر ميلادي، وعلى الرّغم من أنّ هؤلاء المتأثرين بالتّنصير والأفكار الغربيّة ادّعوا إصلاح الهندوكية، إلّا أنّهم قاموا في الحقيقة بإحياء الهندوكية وتنشيطها بطريقة اتّخذت من الإسلام والمسلمين موقفاً أكثر عدوانية، هذا في حدّ ذاته يعتبر أكبر نجاح للتّنصير الذي قدم بتخريب الهنود بعضهم ببعض خدمة كبيرة للاستعمار، والجدير بالذكر أن الجمعيات التي تأسّست في هذا الإطار، كانت المشاركة في إدارة أعمالها ووضع برامجها حكراً للذين تعلّموا الإنجليزية (Smith, 1898: 400)، علماً بأنّ تعليم الإنجليزية نشأ وترعرع تحت إشراف المنصرين وطبقاً لمناهجهم وتوجيههم.

ثانيا : حالة منطقة الخليج العربي:

- آلية التنصير في المنطقة:

إن الأزمات المتتالية التي تعرّضت لها منطقة الخليج العربي تنبع من عدّة عوامل بدأت أحداثها منذ وصول الإستعمار الأوربي إلى سواحل الهند، ثمّ اتّجاههم إلى احتكار تجارة الشرق بالسيطرة على المنافذ البحريّة التي كانت تعبر منها عبر البحر الأحمر والخليج العربي في طريقها إلى أوروبا، عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط شكّل تمايز بين عصر قديم وعصر جديد يختلف اختلافاً كبيراً عن سابقه ذلك أن منطقة الخليج العربي التي كانت تعيش عصراً ذهبياً في الملاحة والتجارة في فترة ما قبل مجيء الإستعمار الأوربي إلى بحار الشرق لم تلبث أن فقدت أهميتها التجارية.

لقد مرّت منطقة الخليج العربي بظروف سياسيّة حرجة أيضاً والتي أدت في نهاية الأمر إلى تدهورها وانكماشها إقتصادياً منذ بداية العصور الحديثة. وترتبط تلك الظروف السياسيّة بالعوامل الخارجيّة، وكذلك بالعوامل الذاتيّة التي أثرت على إزدهار الحضارة الإسلاميّة. وتمثّل العوامل الخارجيّة في تلك السيطرة الإستعماريّة البريطانيّة الشديدة التي تعرّضت لها المنطقة، أما العوامل الذاتيّة فتربط ارتباطاً كبيراً بسوء السياسة التي انتهجها ساسة المنطقة.

لقد إتّبعَت بريطانيا سياسة منهجية متدرجة لفرض نفوذها على المنطقة وتوسيعه بدءاً بالتجارة ثمّ بعد ذلك سياسياً وإستراتيجياً. بداية لم تشأ بريطانيا أن تفرض نفوذها على المنطقة دفعة واحدة، بل جعلته يتدرّج صعوداً انسجماً مع الإعتبارات السياسيّة والاستراتيجيّة المستجدة فما كادت تتخلّص من المنافسات الإستعماريّة التي واجهتها حتى أخذت تتصدّى لتلك التشكيلات السياسيّة التي تزامن ظهورها في منطقة الخليج العربي مع فترات التّنافس الإستعماري بين انجلترا وهولندا وفرنسا، حيث إستطاعت بريطانيا بفضل صداقتها لسلطان مسقط وتحييدها للسعوديين عام 1818 أن تركّز عمليّات بحريّة ضدّ

القواسم وتوقيع معاهدة سلام عام 1820 مع بقية الفصائل العربية المتضمنة أسس تجزئة المنطقة كما تمّ فرض سلسلة الاتفاقيات وقّعها شيوخ منطقة الخليج العربي على حدى، حيث نجح بذلك الإنجليز في فرض سيادتهم بواسطة شركة الهند الشرقية التي تطورت صلاحياتها من تجارية بحتة إلى أن اكتسبت طابعا سياسيا بعيد المدى .

حيث استمرت شركة الهند الشرقية البريطانية في بناء مراكز تجارية مجهزة بقوات عسكرية لتمكينها من الصمود أمام المنافسات الأوروبية الأخرى التي كانت تتعرض لها. وبظهور الإمبراطورية البريطانية في الهند إلى الوجود أصبح محتم أن تكتسب منطقة الخليج العربي أهمية سياسية واستراتيجية بالنسبة لبريطانيا بسبب قرب منطقة الخليج العرب من خطوط المواصلات البريطانية للهند .

فإذا كان تركيز الإستعمار البريطاني على تأمين مواصلاته الاستراتيجية عبر منطقة الخليج العربي نحو الهند. فالانقسامات القبلية والمذهبية والحزبية التي استحكمت ظروفها في المنطقة، سهّلت تجسيد المشروع بتشكيل كيانات سياسية صغيرة لا تقوى على الاستقلال بنفسها والدّفاع على خياراتها، من أجل إلحاقها بدورها التجارية وسوقها الإقتصادي، وذلك من خلال العمل على إيجاد البديل في المجالات العسكرية والتجارية والدبلوماسية – السياسية. حيث أدركت بريطانيا أهمية منطقة الخليج العربي، في السياسات الدولية المستقبلية، ولإحكام سيطرتها على كامل المنطقة لجأت إلى توطيد عقيدتها النصراية.

جاءت الحملة البريطانية عام 1616م التي كانت هي الأطول في منطقة الخليج العربي بعد أن رحل المستعمر البرتغالي في عام 1622م، وكان الإستعمار البريطاني يمثل صورة من الحروب الصليبية القديمة التي عجزت عن احتلال أرض الإسلام وفشلت كلّ مخططاتها من أجل السيطرة والإستعمار الذي جعل من الصليب شعاراً له وزحفت جيوشه من جميع أنحاء أوروبا متّجهة نحو بيت المقدس.

وقد استخدم البرتغاليون مدة قرن من الزمن تقريبا شتى أنواع الطّرق في سبيل تنصير أهالي الخليج إلّا أنّ محاولاتهم باءت بالفشل، وكلّ الوسائل التي استخدموها في إقناع عرب

الخليج بواسطة مبشرهم و إغراءاتهم المادية والمعنوية وكلّ ما بذلوه لم يجد قبولا ولو لدى مواطن خليجي واحد. (الخالدي، 1978: 295).

ووجه الشّبه بين الحروب الصليبيّة والحملات الإستعمارية في العصر الحديث والتي تزعمها الدول النصرانية الأوروبية لا تختلف في حقيقتها عن بعضها، فكلاهما يحمل العداء لهذا الدين وأهله، بل إنّ هذه الحملات الإستعمارية أشدّ تأثيراً وأعمق ضرراً، لأنّها إستطاعت أن تسيطر على المنطقة فترة من الزّمن جعلتها تتغلغل في شتى شؤون الحياة، وتتعرّف على أوجهها المختلفة، وتدرس مواطن التّأثير فيها وتحاول السّيطرة عليها وتوجهها وجهة تخدم الأهداف الإستعمارية الصليبية التي جاءت من أجلها. (شاهين، 1969: 94).

في ظلّ هذا كله بدأ العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشّرق العربي، يتخذها نقطة إرتكاز له ومقلا لمعركته الفكرية التي تستهدف حصار الإسلام والوثوب عليه (الجندي، 1979: 17). لقد رأينا كيف تمكّن الإستعمار بريطاني من فرض اتفاقيات ومعاهدات على شيوخ منطقة الخليج العربي، ولا شكّ في أن محتوى بعض بنود هاته الاتفاقيات يحمل الفكر الاستعماري وعقيدته، فزاول عباداته وطقوسه ومناسباته وأعياده، وحاول نشرها بين المسلمين في المنطقة وأيد المستعمر المدارس النّصرانية التي رغبت الدول في الدعوة إلى دينها.

وقد كانت حركة التنصير من أكبر الأعمال التي اعتمد عليها المستعمر في تركيز وجوده حتّى تصبح حقائق أساسيّة لا سبيل إلى إنكارها. (الجندي، 1979: 415).

وهذه الإدارة الأمريكيّة حليفة الإستعمار البريطاني تؤكّد أنّ حقّ الرّعايا الأمريكيين في ممارسة الطب على أراضي جلالتكم وحكومة الولايات المتحدة في سنة 1833م يجب أن يحظى الرّعايا الأمريكيون بالحماية في عمان وللمبشرين الحقّ في نفس الحماية كغيرهم من رعايا الولايات المتحدة الأمريكيّة. (الخالدي، 1973: 268).

ومن ثمّ فإنّ السلطان قد اضطر للسّماح للمنصرّين في أرضه بعد أن تعرّض للضّغط الشّديد من قبل قنصلية الولايات المتحدة الأمريكيّة في عمّان.

وهذا يبيّن لنا مقدار الدّعم الذي كان يحظى به دعاة النّصرانية من القوى الإستعماريّة في العالم وكيف تخطط هذه القوى لإستغلال التّنصير في تحقيق أهدافها، فمن خلال النشاط التّنصيري تهيّأت الظروف لكي يستمرّ الإستعمار أطول فترة ممكنة يسيطر فيها على مقدّرات الشعوب الإسلاميّة وخيراتها، ويوجه سياسته الداخليّة والخارجيّة وفقا لما يخدم مصالحه. (المهيري، 1981: 118).

وقد كان هناك عمل تنصيري في منطقة الخليج قبل قدوم الإرسالية الأمريكيّة العربيّة بقيادة المنصر صموئيل زويمر من خلال وجود الاستعمار البرتغالي أولا والاستعمار البريطانيّ ثانيا، ولعلّ المهمّ في مجال التّنصير ما كان في زمن الإحتلال البريطانيّ لمنطقة الخليج العربيّ.

حيث وصل في 21 أبريل 1811م إلى مسقط القسيس الانجليزي هنري مارتن (للتعرف أكثر عن هذه الشخصية انظر التعليق رقم 2) ويُعدّ القسيس هنري مارتن من أوائل المنصّرين الغربيين الذين وطئت أقدامهم عمان لغرض مرتبط بالتّنصير، وقد تركت زيارته أثرا في نفوس المنصّرين الذين جاءوا من بعده وأخذوا يستشهدون الواحد تلو الآخر بأقواله في كتاباتهم على الحلم الذي يدغدغ مخيلتهم بتخلّي الجزيرة العربيّة عن الإسلام، واعتناقهم النّصرانية، وانتشارها في كل أصقاع بلاد العرب وكان يهدف من زيارته لعمان التّعرف على المستوى الثقافي واللّغوي للمجتمع العربيّ في شبه الجزيرة العربيّة، فقد كان معنيا بترجمة الإنجيل إلى اللّغتين العربيّة والفارسيّة.

واستمرّت زيارة هنري مارتن لعمان خمسة أيام فقط، حيث غادرها في 25 أبريل 1811م متوجّهاً إلى بوشهر ليكمل رحلته في إيران، لم يتمكّن هذا القسيس من زيارة أماكن أخرى غير مسقط في عمان، وكان يقوم بالتّجوال في الأسواق والأماكن السكنيّة بصحبة رجل عمانيّ يقوم على حراسته وخدمته. (الحسني، 2006: 22).

ويعدّ المنصر الأمريكي صامويل زويمر هنري مارتن إلى عمان عملا بطوليا في تاريخ التّنصير في شبه الجزيرة العربيّة.

ثم مكثت المنطقة من الزمن تربو على 74 عاما لم تشهد عملا تنصيريا منظما إلا ما يتم من خلال وجود الإستعمار البريطاني الذي فرض هيمنته على المنطقة، غير أنّ ذلك النشاط يمارس من خلال السلطات الرسمية النّصرانية في مواقع عملها وبين جنودها بروح نصرانية تبعث في الجنود والحاميات الحماس على البقاء والاستمرار لما يرون أنه ندهم من أجله المسيح.

إنّ الآلاف بل عشرات الآلاف من المسيحيين وبمختلف أسمائهم: رجال كنيسة، ورسل ورجال دين، وشماس، وأساقفة، شاهدوا هذا المنظر العظيم ولكن لم ينطق واحد منهم بصيحة أسى، أو يبعث بنداء إلى الكنيسة، أو حتى يقدم شيئا من الجهد، لقد استقرت القوات البريطانية وبأمان في عدن في الجنوب والنفوذ البريطاني قوي للغاية في الخليج الفارسي، وجعل النفوذ البريطاني لنفسه، بواسطة موظف سياسي مقيم في مسقط وجودا محسوسا للغاية في كلّ من عمان والإحساء في الشرق، وقد أمضى الرحالون الانجليز الأشهر مع البدو في الشمال وفي جزيرة سينا، وقد قطع بالجريف منذ عشرين سنة البلاد من فلسطين إلى عمان، ومع ذلك لا تزال الكنيسة خائفة من أن تضع قدما هناك ولا تزال الاجتماعات الإرسالية تفني بلطف كالمعتاد عن (حراسة الجزيرة العربية) وكأنه لا يمكن أن يعمل شيء أبدا من أجلها، يعلن سنة بعد سنة عن تقديس مئات القساوسة الشباب الذين يعملون لصالح كنيسة انجلترا، ولكن لا يتبرع على اقل تقدير ثلاثون منهم للخدمة الخارجية، بل ولا يتبرع حتى واحد منهم للخدمة في شبه الجزيرة العربية في حين أن الأموال التي تصرف سنويا في لندن وحدها لزخرفة المذبح والمعابد، في عبادة شهوانية وشبه روحية، تكفي لإعاشة عدد من الإرساليين.

إنه ليس غريبا والكنيسة هذا حالها والحماس التبشيري في غيرها من الكنائس منخفض إلى درجة الجزر أن تكون كثير من السبل في العالم الوثني لم تطرق بعد وأن يرتفع مدّ الوثنية في بلادنا أعلى وأعلى.(الحسني: 2006: 27).

لقد كان هذا الخطاب الطويل والرسالة النارية المؤثرة للكنائس في غيرها بمثابة شربة الإفاقة بالنسبة للمنصرين الغربيين الذين قدموا إثر ذلك إلى الجزيرة العربية تباعاً ضمن الإرسالية الأمريكية العربية التي مكثت ما يقارب قرناً من الزمان تعمل في جدّ ونشاط متنقلة من دولة إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد تحظى بمباركة الكنيسة الأم في أمريكا ودعمها ورعاية الدولة المستعمرة بريطانيا لإنقاذ الجزيرة العربية من الظلام الذي تعيشه كما يزعم النصارى وملبّين نداء الربّ كما يقولون عن ذلك في أناجيلهم.

وفور وصول خبر ذلك النداء إلى أسماع المنصرّين تنادوا له بالحثّ والمساعدة فيها هو القسيس (الاكزندر مكي) الذي يعمل لصالح الجمعية الإرسالية الكنسية. (لمزيد من المعرفة ينظر التعليق رقم 2) في ذي القعدة 1305هـ من مقر حقله التنصير في أوغندا بالقارة الإفريقية يوجه نداءً عاجلاً إلى مقرّ الجمعية في بريطانيا بضرورة الشروع المباشر والفوري في عمل تنصيري غير عادي في مسقط عاصمة الدولة العمانية وبقيّة الجزيرة العربية قائلاً فيه (إنّني أرفق بعض الأسطر حول موضوع ما انفك يدور في خلدي لبعض الوقت، وإنّني لن أكون محبطاً إذا أودعتها سلة المهملات، ولن يتحقق لي الامتنان والرضا إلا إذا أعير هذا الموضوع في أحسن الأحوال شيئاً من الاهتمام، وعمل شيء محدود لهؤلاء العرب المساكين الذين أقدرهم رغم أنهم كانوا في السنوات الماضية مصدر مشاكل لي، إن أفضل طريق لتحويل معارضتهم وتبديل تجديفهم إلى مباركة لنا هو أن نعمل جهدنا بخلاصهم (الحسني: 2006: 50).

وأشار القسّ مكاوي في نداء آخر مطوّل إلى صعوبة المهمّة التي يدعو إليها، لذلك اختار لمن يقوم بها الاتصاف بخصائص عملية، وشخصية عالية للغاية تتناسب مع طبيعة المهمة وخطورتها المتوقعة، فالأفراد يجب أن يكونوا منتقين بعناية فائقة من بين خريجي الجامعات البريطانية الذين يتمتعون بقدرات لغوية عالية وولاء قوي للنصرانية، كما يجب أن يكون بينهم أفراد عرب تطمئن إليهم نفوس هؤلاء المستهدفين بالدعوة.

مع ضرورة مشاركة النساء في هذا النشاط، وذلك لدورهم العظيم في تخفيض أعباء المهمة على الرجال، وجعل الطب والتعليم من الأدوات الفعالة في تحقيق أهداف هذا المشروع في الجزيرة العربية (العساكر، 1414هـ: 50).

من خلال هذه النداءات تشكلت النواة الأولى للعمل الميداني في الجزيرة العربية كما مر ذكره فكانت هي طلائع التنصير في الجزيرة العربية وصدق الله تعالى إذ يقول: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) البقرة، الآية: 120).

الخاتمة:

- أوجه التشابه والاختلاف بين حالي الهند ومنطقة الخليج العربي :

تشابه قضيتي الهند ومنطقة الخليج العربي في أن كلاهما يمثل مطمعا للسياسة الإستعمارية البريطانية، حيث تمثل الهند التاج البريطاني وتمثل منطقة الخليج العربي الممر الرئيسي لتجارتها نحو أوروبا، وإن كلاهما عانى من الصراعات التي أوجدتها الرغبة في تولي السلطة. بالتالي ونظراً لأن ذلك مثل تهديدا للمصالح البريطانية في كلا البلدين المتمثلة في المصالح الاقتصادية خاصة وضرورة استمرار بريطانيا في حصولها على المنتوجات الشرقية، فقررت بريطانيا التدخل لتأمين طريق تجارتها بمزيد من الجيوش العسكرية والجيوش من القساوسة لتنصير أهالي المنطقتين الهند والخليج العربي. و من الضروري الإشارة إلى أن العمليات التنصيرية التي عانت منها منطقتي الهند والخليج العربي كانت نتيجة تدخل الإستعمار البرتغالي أولاً وزاد إهتماماً أكبر من قبل الإستعمار البريطاني، بالتالي إن كليهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً. أيضاً يتشابه كلاهما في أن نتائج السياسة الإستعمارية المتعلقة بالتنصير تجاههما متقاربة إلى حد ما.

أما عن الاختلاف بين القضيتين، فهو يتمثل في أن الصراع الناشئ في الهند تختلف أسبابه عن الصراع الناشئ في منطقة الخليج العربي، ففي الهند حاول الإخوة الحصول على الحكم والسيطرة على السلطة إثر وفاة كل سلطان، أما في منطقة الخليج العربي فنشأ صراع مذهبي

وقبائلي لتولي الحكم وأيضا محاولة كل واحد الانتقام من الآخر فكان تدخل الإستعمار البريطاني لمساعدة أخ في التصدي لأخ الآخر لزيادة التمرق الداخلي. أيضا تختلفان في كون السياسة البريطانية الإستعمارية اعتمدت في الهند آليات ثقافية تمثلت في التعليم الغربي ضمن آلية التنصير لمجتمع الهند اعتنق الديانة الإسلامية عن طريق الفتوحات الإسلامية عكس منطقة الخليج العربي منزل الوحي والرسالات السماوية وبريطانيا تعتبر منطقة الخليج العربي هدفا للتنصير بامتياز، لذلك سعت السياسة الإستعمارية البريطانية إلى محاولة دمجها في الثقافة البريطانية والنصرانية بالخصوص باعتبارها منبع الحضارة الإسلامية حيث شكّلت سدا منيعا أمام النصرانية وهذا ما لم تهتم به بريطانيا في الهند ولم توجه إليه أي اهتمام. كذلك واجهت صراعات عرقية لمختلف القبائل الهندية بمختلف اللغات واللهجات لتنصيرها كونها وسيلة مثلى تسعى من خلالها إلى بسط نفوذها على جميع الهند. أما في منطقة الخليج العربي تعتبر منزل الوحي بلغة الدين الإسلامي أي اللغة العربية لغة أهالي المنطقة. أيضا يختلف كلاهما في كون التدخل في منطقة الخليج العربي جاء في المرتبة الثانية بعد ما أصبح للإمبراطورية البريطانية وجود فعلي في الهند.

التعليق رقم 2. هي مؤسسة نصرانية انجليكانية انشئت عام 1799م وعينت بالعمل التنصيري خارج بريطانيا وخاصة في المستعمرات البريطانية.

قائمة المراجع:

- 1- عبد الحي الحسني. (2006). الهند في العهد الاسلامي، مجمع الإمام أحمد بن عرفان لإحياء المعارف الإسلامية. الهند
- 2- إحسان حقي. (1978). تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية. مؤسسة الرسالة، بيروت
- 3- . عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند.
- 4- عادل حسن غنيم وزميله. (1980). تاريخ الهند الحديث. مكتبة الخانجي، القاهرة.
- 5- سعود زيتون الخالدي. (2002). محطات تاريخية . ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.
- 6- عبد الصبور شاهين. (2002). الغزو الفكري اهدافه ووسائله ، مطبوعات العالم الاسلامي ، مكة المكرمة، ط2
- 7- انور الجندي. (1979). العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي. دار الكتاب ، بيروت،

- 8- مصطفى الخالدي. (1973). التبشير و الاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، لبنان، ط 5
- 09-سعيد عبدالله حارب المهيري. (1981). الغزو الفكري في الخليج العربي، جامعة الامام محمد بن سعود
الاسلامية.

10-Vincent Arthur Smith : The Oxford History of india